

مذهب الملاحظات العقلية

للمستاذ محمد مظهر سعيد بك

أستاذ علم النفس

بمعهد التربية وكلية أصول الدين



يسرنا أن تقدم لقراء المعرفة ، هذا البحث
الفلسفي السيكولوجي ، الذي تفضل العالم البعثة
الاستاذ مظهر بتقديمه لقراء « المعرفة » .

وسيقدر القراء تمام التقدير مقدرة الاستاذ
العلمية وقوته البانية ، حينما يعلمون أنه حذف
الشيء الكثير من الاصطلاحات الدقيقة والنقط
العلمية العميقة الجافة التي قد لا يستسيغها جمهور
القراء العاديين ، فأراني على الغاية في بسطه بغير
توب العلم الجاف ، مما لا يتوفر للكثيرين .

على أن هذا ليس بالكثير على الاستاذ
مظهر بك صاحب المباحث العلمية الجلية التي قدورها
له علماء الغرب أجل تقدير فاختاروه لأجائها عضواً

في المجمع العلمي البريطاني والجمعية البريطانية السيكولوجية . وذلك منزلة تصعب على من رامها وتطول .
وجدير بنا في هذا المقام أن نشير الى أن الاستاذ من خريجي المعلمين العليا ، وحائز لكالوريوس العلوم
والماجستير (الاستاذية) في علم النفس والتربية من إنجلترا . وهو أول مصري حاز هذه الدرجة في المحرر

(١) أصله :

عنى الفلاسفة الأقدمون بعض العناية بدراسة العمليات العقلية البسيطة الظاهرة ، ولكنهم
لم يوفقوا لأكثر من ملاحظة بعض الفوارق المميزة لأنواع الحياة العقلية المتعددة ، والطرق التي
يتصل بها العقل بالمؤثرات الخارجية . ولما أعيتهم الحيل في تفسير طبيعة هذه الظواهر تفسيراً
علمياً تفصيلياً ، اكتفوا - لما كان فيهم من نزعة للتبويب والتقسيم - بفرض عدة قوى عقلية

اعتبروها مسببة لهذه الظواهر أو على الأقل تساعد على إحداثها ، وسموها ملكات (أو قوى كامنة موروثة) وألحقوا بها كل عمليات الإدراك والشعور الأولية البسيطة المعروفة لديهم وقتئذ . على أنهم في الواقع لم يقصدوا بكلمة ملكة سوى التعبير عن حالات النفس الخاصة عند ما تتأثر بالمؤثرات الخارجية عن طريق الحواس - وبعبارة أخرى اعتبروا قوة الملكة سلبياً بأنها مجرد قابلية العقل للتأثر بمشاعر وانفعالات خاصة . ومن ثم نزع الفلاسفة إلى تقسيم كل العمليات العقلية تقسيماً تفصيلياً بأرجاعها إلى ملكات خاصة مسببة لها .

(٢) موجز تاريخي :

١ - أفلاطون : — افترض أفلاطون أن للانسان ثلاث نفوس - أو بعبارة أخرى قسم النفس الأصلية إلى ثلاثة أجزاء . كل منها نفس ثانوية قائمة بذاتها ، تباشروها مستقلة نوعاً من الأنواع الرئيسية الثلاثة للعمليات العقلية - لأن حقيقة التنازع بين أحوال النفس المتعددة تبيّن إثباتاً قاطعاً على حد قوله : أنها تتكون من ثلاثة عناصر مختلفة وهي الاستدلال القياسي أو الحكم ، والرغبة أو الشهوة ، والانتباه أو الإرادة . فهو على ذلك اعتبر أن الملكات ثلاث (١) .

ب - أرسططاليس : —

رفض أرسطو تقسيم أفلاطون لأنه اعتبر النفس الواحدة الكاملة مترتبة من ملكات خمس - الغذائية المتولدة حفظ الجسد وإشباع حاجاته الضرورية - والشهوانية التي تسعى وراء الطيب السار وتبتذ الفاسد المؤلم - والإدراكية الحسية المنوطة بأدراك الظواهر الطبيعية والمؤثرات الخارجية عن طريق الحس - والمحركة التي تشرف على حركات الجسد وسائر أعضائه - ثم العاقلة المفكرة التي تعقل وتفكر وتتصرف به . على أنه كان يسلم ضمناً بأن الله وهب الانسان قوة حيوية واحدة تحفظ كيان جسمه وعقله وهي النفس .

ج - الفلاسفة المدرسيون : —

اتبع القديس توماس زعيم هذه المدرسة رأى أرسطو ، ولكنه تشدد في بيان الفرق بين الشهوة الحسية التي يخضع الانسان لها رغم إرادته وليس له سلطان عليها ، والشهوة العاقلة الإرادية التي تعرف ما تريده وتفعله . وأشار كذلك بوجود تمييز الملكات عن بعضها ، لا بالعمل الذي تقوم به وحده ، وإنما بالعمل والمؤثر الخارجي الدافع لهذا العمل معاً ، لأن العمل العقلي ماهو إلا نتيجة لارتباط العقل بالشئ الذي يدركه - وعدل التقسيم من جديد إلى

الملكمة الروحانية التي تشرف على العقل والبدن معاً ، والادراكية الحسية ، والادراكية العقلية المجردة عن الحس ، وملكمة المعرفة ثم الشهوانية . وأضاف أتباعه ملكة النشاط العقلي النسبي ، وملكمة إدراك العلاقات الكونية .

د — التقسيم الثلاثي : —

ظلت نظريات الفلاسفة الأقدمين الخاصة بالعمليات النفسية على ما هي عليه ، حتى جاء ديكارت بـ سيكولوجيته الفاعلية — سيكولوجية الإدراك المباشر — التي تجعل الفرد المدرك الشاعر أصلاً للحياة النفسية ذاتها ، وتعتبر أن العقل المدرك هو الإدراك في ذاته : واستلزم هذا الفرض المناقض لفروض سيكولوجية أرسطو الموضوعية (التي ترجع كل الظواهر العقلية إلى النفس أو الروح الألاهية لا إلى العقل) تغييراً في تبعية الملكات للنفس وإلحاقها بالعقل . ومن ثم اعتبرت الملكات مجرد طرق خاصة للإدراك العقلي ، أو هي العمليات الادراكية ذاتها . وشعر أتباع ديكارت إزاء هذا التغيير الجوهرى بحاجة إلى وضع تقسيم جديد للملكات العقلية . فارتأى مندلسون وتيتنسن ، أن يكون التقسيم ثلاثياً — ملكة الإدراك أو المعرفة ، وملكمة الوجدان ، وملكمة الإرادة — لأن هذه القوى تمثل حالات الشعور النهائية المطلقة التي تنتهي إليها بالتحليل كل العمليات العقلية المعقدة . وأدج (كانت) هذا الفرض في نظريته التي تقول بأن كل القوى العقلية ترجع إلى أنواع ثلاثة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال ، وليست مشتقة من أصل واحد وهي المعرفة ، والشعور بالسرور والألم ، ثم الرغبة أو الإرادة (١)

وفرق أتباعه بين الإدراك الحسي ، والإدراك العقلي المجرد عن الحس مستدركين بذلك ما أهمله ديكارت . ولكنهم لم يذكروا هذا الفرق في نص النظرية ولا في التقسيم . وهاملتون ذاته على شدة تدقيقه لم يفتن لهذا السهو — أما الملكة فقد عرفوها إيجابياً بأنها نوع خاص من الإدراك المسبب للعمل العقلي — أي كان نوعه — وسلبياً بأنها قابلية العقل للقيام بهذا العمل . ولكن هاملتون قصرها على النوع الأول بحارياً ليذتر في رأيه — ومع تسليمهم باستقلال الملكات كل عن الأخرى فانهم لم يعتبروها قوى مستقلة قائمة بذاتها ، بل عوامل خاضعة للعقل راجعين بذلك إلى فرض أرسطو (٢) .

ه — تقسيم سبنسر الثنائي : —

(١) راجع مقدمة كتابه في نقد الحكم (٢) راجع السيكولوجية التحليلية من ٣٨ تأليف استوت

(1) Kant : The Kritik of Judgment. (2) Stout : Analytic Psychology.

نحنا سنسرفى دراسته للظواهر العقلية ناحية أخرى ، جاعلا الشعور (الاحساس) محور سيكولوجيته ، ولذلك قسم الملكات إلى طائفتين اثنتين أساسيتين - المشاعر والعلاقات الإدراكية التى تربط هذه المشاعر المختلفة ، ولم يزد على هذا شيئا فلم يتبع تقسيمه أحد الامير كيه .

و — المدرسة التجاريدية : —

قلنا إن الاقدمين فرضوا مذهب الملكات المستقلة كوسيلة لتقسيم العمليات العقلية ، ولكن (وولف) حاول أن يستخدمه فى تحليل القوى العقلية وشرح عملياتها (١) فأعاد البحث فى العمليات العقلية كلها ، وصنفها وقسمها إلى عدد محدود من الجاميع ، معتبرا كل مجموعة نتيجة للملكة خاصة ، على أساس أن هذه الملكات هي وحدها المسببة لكافة المظاهر العقلية ، وزاد فى عددها وأطلق على كل منها اسم الوظيفة التى تقوم بها . فصارت الذاكرة ملكة ، وكذلك التخيل والتأمل والملاحظة والارادة وغير ذلك ، كل منها ملكة خاصة . وتوسع (لوك) فى التقسيم فافترض لكل عمل عقلى .هما كان بسيطا ملكة خاصة . واستغل (سيورز هاين) هذا التقسيم الجديد على مابه من مغالاة ، واستخدمه وسيلة لبناء علم فراسة الرأس (الفرينولوجيا) من جديد ليكسبه صبغة فلسفية سيكولوجية قد تجعله مقبولا لدى العلماء ، وقسم الملكات من جديد إلى رئيسية وهي ملكات الحس والشعور - (تنفرع الى ملكات دافعة للعمل وعواطف مبينة للانفعالات) وملكات عقلية (تنفرع الى الادراك الحسى والتأمل العقلى) وثانوية تشمل كل أنواع الادراك والارادة والانفعال والعمل . وقسمها من ناحية أخرى الى ملكات منشطة يشترك فيها الانسان والحيوان ، وأخرى راقية يتميز بها الانسان وحده (٢)

وقد رفض علماء النفس هذا التقسيم لانه كما يقول (كولب) تقسيم جمالى وأخلاقى أكثر منه سيكولوجى .

وسار العلماء المتأخرون على هذه السنة فلم يتركوا ظاهرة عقلية صعب عليهم تفسيرها وإدراك عملها وتجديد وظيفتها إلا وخلقوا لها ملكة جديدة ، فأضاف (جالتون) الملكات الخلقية والملكة المميزة (المعدومة عند البهائم والمعتوهين) وملكة التمثيل البصرى (المسببة للاحلام والرؤى والتهيات) وملكة التصور العقلى (الحافظة للصور الشبكية العينية التى

(١) راجع كولب - حدود علم النفس ص ٢٣-٢٥

(1) Kulbe : Outlines of Psychology.

(٢) راجع وارد - مقال علم النفس والفرينولوجيا بدائرة المعارف البريطانية Ward.

يمتاز بها المهندسون والمعماريون والعنويون (١). وابتكر (فرويل) ملكة الكلام (٢). وأعاد (وليم جيمس) تقسيم ملكة الذاكرة الى ثلاث ملكات مستقلة وهي : ملكة الاستدكار (استقبال المؤثرات الخارجية عن طريق الحس وتكوين الروابط بين آثارها) والحافظة (ملكة حفظ الآثار التي تتركها المؤثرات في العقل) والمرجعة أو الذاكرة (ملكة لإرجاع المواقف الماضية وتذكرها كما حدثت عن طريق هذه الروابط) (٣)

وهكذا أصبح العقل في نظر أتباع هذه المدرسة مجموعة قوى أو ملكات مستقلة تقوم كل منها بعملها من غير أى اشتراك أو تعاون مع الملكات الأخرى ، أو تكون لها وحدة عضوية ، كأعواد القش المتفرقة تجمعها الحزمة الواحدة (٤) . وبعبارة أخرى يكون العمل العقلي خليطاً من عمليات مستقلة تختلف عن بعضها تمام الاختلاف وتقف جنباً لجنب منعزلة لا يربطها رابط ولا تؤثر إحداها في الأخرى . وفقدت صور العقل المتعددة وحدتها الحيوية التي نادى بها القدماء ، وتسامح بعضهم في الرأي فسلم بإمكان قيام الملكة بعملها مستقلة أو مشتركة مع ملكات أخرى في أعمال معقدة ، من غير أن يفقدها هذا التعاون في العمل شيئاً من استقلالها على مثال أعضاء الجسد ، ولذلك سموها أعضاء العقل . على أن القليل منهم تمسك بمبدء وحدة العقل . فالعالم (جال) كان يعتقد بوجود قوة واحدة (وهي العقل) تدرك وتتصرف وتشرف على عمل الملكات كما كان يقول أرسطو عن النفس . وقال (كالدول) الفيزيولوجي الأمريكي بأن العقل واحد في قوته كما هو في مادته ، فهو يساعد الملكات ويرشدها ولو أنه لا يحتويها . (٥) وقع (بين وصالى وسبنسر) باعتبار الملكة مجموعة أعمال عقلية ولم يتعمقوا في البحث الى أكثر من هذا .

وهكذا تطورت فكرة الفلاسفة عن الملكات من مجرد قابلية النقل للقيام بعمل معين الى قوى فعالة بسيطة لا يمكن تحليلها الى عناصر أبسط منها . (٦)

(٣) تحديد مراكز الملكات ومناطق عملها : —

(١) راجع كتاب السير فرانسيس جالتون - أبحاث في الملكات الانسانية ص ١٠٠

(٢) راجع كتاب تربية الانسان صحيفة ٧٠ Froebel

(٣) راجع وليم جيمس - أصول علم الجزء الثاني فصل الذاكرة

(٤) راجع صالى - العقل ص ٧١ Sully

(٥) راجع كتابه مبادئ علم النفس ص ١٦ Caldwell

(٦) راجع رسك - التربية التجريبية ص ٣٨ Rusk : Experimental Education.

تطور المذهب من مجرد الفرض الى حقيقة اقتنع هؤلاء الفلاسفة بوجودها ولم يكن ينقصهم في مبدء الامر إلا خطوة واحدة في سبيل تحقيقها ، وهى تحديد مراكز الملكات في المخ والجسد . وتقدمهم افلاطون في هذا السبيل إذ جعل المخ مركزا للروح كما اعتبر ارسطو وفلاسفة الاثيم القديمة القلب مركزا للحياة .

وجاء عصر التشریح فسهل عليهم معرفة الشئ الكثير عن وظائف المخ والأعصاب والمناطق العصبية المتعددة . واتسع أمامهم المجال للتقسيم بعد أن أثبت (هيروفيلوس) . و (ايرسيس تراتوس) أن لكل منطقة من مناطق المخ وظيفة محدودة . فجعل جالينوس المناطق الوظيفية (مناطق الجهاز العصبي والبدن التي تقوم بوظيفة عقلية) ثلاث ، وزادها ابن رشد واحدة وأضاف ابن سينا الخامسة . أما من حيث توزيع هذه المناطق على الملكات فأول من وزع الملكات على مناطق الرأس ووصفها وصفا دقيقا هو (البرتوس ماجنوس) في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي واخصص المنطقة الوريدية بالحكم والوسطى بالخيال والخارجة بالذاكرة . وافترض جوردون أن القرن الخارجى للبطين الطولى يقوم بالاحساسات العادية . أما استقبال المؤثرات المعقدة والخيال فخاص بالثاني والحكم بالثالث والذاكرة بالرابع .

وظل هذا التخطيط معمولاً به رغم حملات فلاسفة القرن السابع عشر وقد أسس عليه (جال) علم فراسة الرأس ورسم على نموذج الرأس ٢٦ منطقة كل منها تمثل ملكة خاصة وزادها الأخان (فاوئر) الى ٤٣ وأضاف علماء التشریح المتأخرون ملكات جديدة كل على حسب أهوائه . وهكذا عاش مذهب الملكات إلى اليوم تحت اسم علم فراسة الرأس .

(٤) خواص الملكات المرغومة

نسب الفلاسفة للملكات خواص ثانوية ، تنفرع من الخاصيتين الأساسيتين وهما (القابلية والسببية) اللتين ذكرناهما آنفاً . أهمها : -

١ - إن الملكة هبة طبيعية موروثه غير مكتسبة بالمران ولا التعلم (شأن كل الهبات الطبيعية) فمن وهبه الله ملكة الخيال كان شاعرا خياليا ، أو روائيا مبدعا . أو ملكة الذاكرة كان ذا ذاكرة جبارة تحفظ كل ما يستقبله من المؤثرات أيا كان نوعها . وكذلك الشعوب تتميز كل منها بملكة خاصة قد لا توجد في سواها . فيقال إن هذا الشعب سريع التأثر بالموسيقى ، وذلك له إحساس دقيق بالجمال .

ومثاله ما يقرره (جالتون) من أن البوشمان (أهالى جنوب أفريقيا) ، وكذلك الفرنسيين تقوى فيهم ملكة التخيل وإدراك البصرات ، ويقول (وليم جيمس) إن ملكة الحافظة وهى

الملكمة الثانية من ملكات الذاكرة موروثة فلا تتغير إلا في حالة المرض ، فمن ورثها قوية كانت ذاكرته على وجه العموم قوية ومن كانت فيه ضعيفة أو معدومة كان سريع النسيان .
٢ - يتبع هذا الفرض بأن الملكمة قد تكون قوية أو متوسطة أو ضعيفة على وجه العموم فتقوى الذاكرة بتذكر الوجوه كما يتذكر الاسماء والتواريخ وكل ما يمكن استخدام الذاكرة فيه .
٣ - ولكن الملكات مع هذا قابلة للتحسين بالتمرين فتقوى بالتمرين المناسب وتعمل بمنتهى الكفاية في كل ظرف وتحت أى مؤثر .

٤ - كما أنها قد تضعف أو تضمحل تماماً بالتراخي والاهمال أو تكن وتقبح لفرصة ملائمة أو تخلى الطريق للملكات أخرى أقوى منها وأكثر فائدة (١)
٥ - وتمرين ملكة معينة يقويها من كل النواحي ، فتمرين الذاكرة بحفظ الشعر يقويها في حفظ أى مادة أخرى . وكذلك تقوية إحدى ملكات الذاكرة الثلاث يقوى الملكات الباقية . وعلى هذا المنوال يمكن تقوية ملكة الخيال جملة . وقد قال علماء التربية في القرن الماضي بإمكان تقوية ملكة الملاحظة . ونادوا بوجوب تدريب التلاميذ على نوع من أنواع الملاحظة . ويستشهد (السير أدامز) على هذا بأن (هودين) تمرن نفسه وابنه معه على تذكر كل ما يقع تحت نظرهما ولو عرضا بملاحظة معروضات واجهات الحوانيت ، وأمكنه بذلك أن يتذكر بسهولة حوالى خمسمائة شئ دفعة واحدة (٢)

٦ - وافترض بعض أنصار المدرسة الالمانيكية أن تقوية ملكة واحدة قد يؤدي إلى تحسن ظاهر في جملة ملكات وهذه نتيجة طبيعية لفرضهم الأصلي القائل بأن الملكات قد تتعاون معا في القيام بالعمليات العقلية الراقية (٣) . وهذا الفرض الأخير هو الذي ربما العلماء المحدثون إلى بحث الموضوع السيكلوجى المعروف باسم (انتقال التحسن الناتج عن تمرين ملكة واحدة الى ملكات أخرى)
(٥) أوجه الدفاع عن المذهب :

أثبت علم النفس الحديث فساد هذا المذهب ونادى ببطلانه كما سنبين فيما بعد . ولكن

(١) راجع تومسون - الغريزة والذكاء والخلق - الفصل ١٤
Thomson : Instinct, Intelligence and Character.

(٢) راجع كتاب أدامز : السيكلوجية الهربارتية الفصل الخامس والسادس
Adams : Herbartian Psychology.

(٣) راجع مقال (وارد) بدائرة المعارف البريطانية

بعض العلماء يتساح في قبوله معدلا ولو على الأقل باعتباره طريقة للتقسيم لأن كل وسيلة لتبويب الأعمال العقلية ووضع كل ما تشابه منها في مجموعة واحدة تغتفر - مادام الغرض منها تحليل هذه العمليات - الى عناصرها الاولية ، وفي هذا يقول (ماهر) إن محاولة العلماء الحديثين الذين ساعدوا على هدم مذهب الملكات في البحث عن عناصر العقل البسيطة هو في الواقع رجوع إلى حظيرة المذهب (١) ويقول (صल्ली) إنه يسهل مأمورية التقسيم ولكن من العبث قبوله كوسيلة لدراسة العقل وتفسير عملياته (٢) وفريق آخر من العلماء يسلم بوحدة العقل ولكنه يسلم أيضا بوجود وظائف عقلية مختلفة بعضها أقوى في الفرد الواحد من البعض الآخر ، مستدلين على ذلك بما يوجد من الفوارق الجوهرية بين عقلية الأطفال قبل أن يصلوا الى دور التعليم ، والتعليم الذي يطبعهم بطابع واحد يجعلهم نوعا ما متجانسين متقاربين . وتتم الوظائف العقلية وظهورها في الطفل في أدوار مختلفة ، وفي انقسام العقل وتعدد الشخصية في بعض حالات الجنون والاضطرابات العصبية ، ومن الشعور بالألم في مناطق خاصة من المخ عند الاستمرار في نوع واحد من العمل ، واضطراب العقل اضطرابا محدودا عند اختلال عصب خاص من أعصاب المخ . وأخيرا من إجماع علماء التشريح على تقسيم المخ إلى مناطق للنظر والسمع والحركة وغيرها

وستتناول في المقال الآتي ما كان لهذا المذهب من أثر خطير في التعليم وكيف أثبت علم النفس التجريبي بطلانه من جميع الوجوه

محمد مظهر سعيد

(١) راجع كتاب ماهر : علم النفس ص ٣٩ . Maher : Psychology.

(٢) راجع كتاب صल्ली : حدود علم النفس ص ١١٥ . Sully : Outlines of Psychology.

القلب المعنى

يا لهذا القلب البئيس المعنى
لم يبق من هوى الحبيب القاسي
مذا داروا سلافة الحب قدما
ملأوا من دم الحشاشة كاسي
« رباعيات الخيام للتجني »